

الثقافة التي لا نريد...

◆ بقلم عبدالكريم يحيى الزبياري

ليس هناك بشرٌ أسوأ من الذين يتبجحون دائماً بهويتهم. فهؤلاء المتعصبون لا يعتقدون-أنهم على صواب- فحسب، بل إنهم مُستعدون دائماً لحفر قبرٍ تحت أقدام من لا يصدقهم، ومَن يُنبههم إلى أخطائهم.

- رافائيل أرغولول-صياد اللحظات-ترجمة رفعت عطفة-2005-دار بدايات-دمشق-ص89. إذا كنا نعرف الثقافة التي نريد، فلماذا تسود الثقافة التي لا نريد؟ والثقافة التي نريد، هي أن نعرف ونريد ما يجب أن نفعل، وأن نفعل ما نريد فحسب، لُهي الثقافة التي لا نريد.

ما هو العائق أمام سيادة الثقافة التي نريد؟ هل التقيد بالماضي، سبب لعجزنا الحاضر؟ جاء في أسطورة هندية قديمة، أن رجلاً توفي ولم يترك لأبنائه من الميراث سوى بطيخة، فاقترح الابن الأكبر الاحتفاظ بها كذكرى من أب عزيز، فاعترض الابن الأصغر بأن ذلك لن يجلب إلا العفونة والرائحة الكريهة، لذا يجب أكلها ورمي قشورها، أما الابن الأوسط، فقال نأكل البطيخة، ونزرع بذورها في الأرض المجاورة، فتبقى ذكرى الوالد ويعود بالخير علينا وجيراننا، فبين رأي المحافظين المتطرفين، ورأي المجددين المتطرفين يقاوم الابن الأوسط بفكر الاعتدال، وحمائم السلام تحاول التحليق بين الشمولية والفرسانية.

هل بمقدور ثقافتنا الإنية أن تقرأ أسساً للتواصل والتفاهم بين البشر؟ إذا لم يكن بمقدورها فلماذا لا تكون عرضة للمساءلة والمراجعة؟ هل بمقدور الثقافة أن تمنحنا تعويضاً ولو نسبياً عن ما حرمتنا منه الواقع؟ هل بمقدور الثقافة الارتفاع بتفكير الإنسان ووجدانه إلى تعلم التعايش مع الآخر؟ هل بمقدور الثقافة استبدال المنظومة الفكرية التي تهيمن على الفكر البشري؟

لصالح السياسي والأيديولوجي تراجع الثقافي والإبداعي، ولصالح الثقافة الفرسانية (تغيب القضية لصالح الفرد) انحسرت الثقافة الشمولية (تغيب كل شيء من أجل القضية الكبرى) وبانكشاف الحقائق، بدأت اليوم علامات انحسار الثقافة الفرسانية.

كلُّ فردٍ يعتقدُ أنه على صواب، فما يدرينا أننا ضالون ومخطئون حين نحسبُ أننا نحسنُ صنعا؟ والاعتقاد بالصواب المطلق، ينتج عنه بالضرورة، اعتقادٌ ثانوي مُبطنٌ بالخطأ المطلق لمن يختلف معنا، وأسوأ خصائصنا التفكيرية، خنق التفكير بتحديدته، وشرعنة الأحكام المسبقة، فالحق يدور معنا، والمنهج الصواب هو ما ننهج، والعقل هو ما نعقل، بينما بحسب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الحق لا يتبع الأشخاص، بل الأشخاص يتبعون الحق).

الثقافة قومية أم عالمية؟ ما هي الصفات المشتركة للإنسان العالمي؟ أليس الإنسان الحقيقي هو الذي يحبُّ لأخيه الإنسان ما يحبُّ لنفسه؟ للثقافة العالمية أربعة أركان أساسية (التسامح والقبول الاجتماعي والوعي والانفتاح) فما هي أركان الثقافة القومية؟

القومية لغةً: مشتقة من قوم، بإضافة ياء النسبة وتاء التانيث، وفي لسان العرب لابن منظور (قوم كل رجل: شيعته وعشيرته.. النَّقْرُ وَالْقَوْمُ وَالرَّهْطُ هَوَلاءَ معانهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم، قال تعالى (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) 117- آل عمران، وقوله تعالى (كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ) 160- الشعراء.

القومية اصطلاحاً: مبدأ سياسي اجتماعي يُفَضَّلُ صاحبه كل ما يتعلق بأمته على سواه مما يتعلق بغيرها، أو هي (عقيدة تُصَوِّرُ وعياً جديداً يُمَجِّدُ فيه الإنسان جماعة محدودة من الناس يَضُمُّها إطار جغرافي ثابت، ويجمعها تراث مشترك وتتنمي إلى أصول عرقية واحدة) 1. ولكلِّ القوميات تاريخ حافل يؤمن لهم أحلاماً بإعادة السيطرة على مساحات واسعة من الأرض.

كان الدكتور عبد الرحمن الحبيب يدرش مع صديقه الإيراني في لندن، فقال له: "إن المناطق المُطلَّة على الخليج والعراق وأفغانستان، وباكستان، وأذربيجان والهند، وتركيا، والشام، كلها من المفترض أن تكون لإيران، لولا تأمر الدول الإمبريالية وعملائها". كان هتلى يري أن الشعب الألماني هو أرقى الشعوب، وبسبب هذه الرؤية اندلعت الحرب التي ذهب ضحيتها 17 مليون من العسكريين، وأضعفهم من المدنيين، عانت الأرض الدمار والفساد وانحلال القيم والأخلاق، فلم يعد هناك شيء يستحق الحرص والمدن تتهاوى وأشلاء القتلى في كل مكان.

وكذلك كلُّ القوميات تعتقد أنها صاحبة الحق في مساحات شاسعة من الأراضي استناداً إلى حجج تاريخية واهية، وفي سبيل اعتقادها الخاطيء (وهي تحسب أنها على حق) ترتكب الكثير من المجازر ضد قوميات أخرى، بدأت أول حركة تعريب، حين كانت اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) في العراق، والرومية في الشام، والقبطية في مصر، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان (65هـ-86هـ) بتعريب الدواوين، فصارت العربية لغة الدولة، وبازدياد الفتوحات، ازداد التعريب وتسابق المسلمون إلى تعلم العربية خاصة الموالي الذين كانوا يعيشون في بلاد العرب، ونبع هؤلاء وفاقوا العرب الأصليين، فتولوا القضاء واستلموا المناصب، ونقلوا التفسير، وحسبك: طاووس ومكحول وعكرمة ومجاهد من تلاميذ ابن عباس، ونقلوا الحديث وحسبك البخاري ومسلم، هؤلاء الموالي هم الذين نقلوا لنا الدين الإسلامي، فلماذا نحتقرهم بعصبية قيل عنها (دَعُوها فَإِنَّها مُنْتَنَةٌ) 2 وكما ابتعدوا عن زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت أعداد المتعصبين تزداد، ويزداد تعصبهم، وقد جاء في صحيح مسلم (أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بَعْسَفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمَلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنُ أَبْرَى. قَالَ وَمَنْ ابْنُ أَبْرَى؟ قَالَ مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا؟

قَالَ: فَاسْتَحَلَفْتُ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ إِنَّهُ قَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عَمْرُ أَمَّا إِنَّ نَبِيَكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ). بهذا الكتاب (رمز العلم) وليس بهذه القومية ولا بتلك، ولم تسقط الحضارة الإسلامية في بغداد والأندلس، حتى انقسموا إلى طوائف وقوميات متناحرة، هل الإنسان كائن بشري أم كائن قومي؟ الإنسان لا يوجد بدون ولاء، أيًا كانت ثقافته وجنسيته، وولاؤه يمنحه عن حبٍّ ورضا وقناعة، أما القهر وأنظمة القمع والرقابة فلا تؤدي إلا إلى التظاهر بالولاء، والموالي الذين أخلصوا للدين الإسلامي كان ولاؤهم محسوماً من البداية لله سبحانه وتعالى، وكتابته ولسوله، ولاءٌ غير مرتبطٍ بأشخاص أو هيئات أو جهات.

هل الإغراق في الثقافة القومية، ابتعاد عن كل ما هو إنساني؟ لماذا ذابت الكثير من القوميات في الأمة الأمريكية والألمانية والفرنسية، بينما هناك أقليات عرقية مختلفة في الوطن العربي، تعلمت كيفية التعامل بين ما هو ديني وعرقي في تراثهم؟ هل أعانهم الاضطهاد على الاحتفاظ بهويتهم القومية أم هو الدين الذي كان ولازال حجر الجذب الحقيقي لتثبيت القوميات غير العربية بالثقافة العربية؟ فإذا كان الدين ليس أساساً في الحكم، فكيف يبقى حجر الجذب؟ وكلما ازداد اضطهاد الأقليات في مجتمع ما، ازدادت هذه الأقليات انكماشاً على نفسها، وتضاعف اعتزازها بأصولها، لتترسخ فيها أيديولوجية الكراهية والأحقاد، التي ستتغلب على هوى العلم والمعرفة والحقيقة التي بدأت في السيطرة على عالم الإنسان المعاصر...

ما الرابط بين ثقافة الإنسان الجزئية والثقافة الإنسانية الكلية؟ وما الحاجز بينهما؟ هل الرابط هو عين الحاجز؟ إذا تخلصنا من الرابط فهل سنحرر من الحواجز، وتصير الثقافة أصرة تساهمية بين أبناء الجنس البشري كافة؟ هل من الممكن الحديث عن خصوصية ثقافة شعب ما، بعيداً عن خصوصية اللغة والتراث والتاريخ؟

أليس أصحاب التيموس³ هم الأكثر استفادةً من الإغراق في الثقافة الفردانية؟ أليسوا الأشجع والأقدر على القتال دفاعاً عن امتيازاتهم؟ وشجاعتههم وقدراتهم وامتيازاتهم غالباً ما تكون موروثية. والعقدة في العودة إلى نقطة البداية، حيث أن أساس الثقافة الفردانية، هو أن كل فرد يرى أن رأيه دائماً صواب، حتى لو كانت حجته: هذا ما وجدنا عليه آباءنا، أو سيحمل كبراً لنا عنا الأوزار.

الهوامش

- 1 د. محمد محمد حسين- الإسلام والحضارة- دار الفرقان- ص 201.
- 2 ورد الحديث في صحيح البخاري (باب قوله تعالى سواء عليهم استغفرت لهم) وورد في صحيح مسلم باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، وفي سنن الترمذي باب سورة المنافقين.
- 3 أصحاب التيموس، تعني أصحاب تقدير الذات، وهم الذين حصلوا بعدم تهيبهم القتال حتى الموت على سيادة صاروا بسببها نبلاء وأغنياء وذوي امتيازات خاصة، أما الذين خافوا على حياتهم أن يفقدوها وانسحبوا من المعركة قبولاً بان تمارس عليهم هذه السيادة، صاروا إلى عبودية تحت سيادة أولئك النبلاء، فالنبالة كما يراها فرانسيس فوكوياما هي محصلة هذا التقدير الذاتي (التيموس) وكان هذا التيموس قد كوّن ثقافة أوروبية راسخة عميقة الجذور، وكان التيموس هو الأساس الذي شيد عليه الأوروبيون معظم منجزاتهم التاريخية.